الآليات الإجرائية لتعليمية النص الحجاجي
" طَلاَئعُ الشَّيْبِ " للإمام الشافعي نموذجا

د/ حمدي منصور جودي
جامعة بسكرة

الملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى الإحاطة بالجوانب والآليات الإجرائية لتعليمية النص الحجاجي، وذلك من خلال إبراز التكافؤ الحاصل بين قواعد المنهج المفترض، والآليات الإجرائية التطبيقية حين دراسة النصوص الحجاجية، مع تحديد التضافر النسبي بين هذه الآليات المعتمدة في تحليل النص الحجاجي والطرائق الممكن تبنيها أثناء العملية التعليمية، من أجل تحقيق التعلّمات المستهدفة والمبرمجة سلفا. وغايتها من ذلك تحديد مقاربة إجرائية تعليمية تمكّن دارس النصوص الحجاجية من إتباع نسق وظيفي دلالي تداولي يبرز خصائص هذه النصوص وكيفيات تعليمها وتعلّمها. ولأجل هذا وذاك، تم اختيار قصيدة " طلائع الشيب" للإمام الشافعي مثالا يوضح تلك الغايات الإجرائية التعليمية، لما في هذه القصيدة من أبعاد حجاجية تهدف – في عمومها – إلى إقناع المتلقي والتأثير في سلوكه ومعتقده، انطلاقا من سياق تعليمي تعلّمي.

Résumé :

Cette étude vise à prendre les aspects et les mécanismes procédés concernant la didactique du texte argumentatif, en mettant en surbrillance le parité entre les normes du méthode supposé, et les mécanismes procédés appliqués au moment de l'étude des textes argumentatifs, tout en déterminant la synergie relative entre ces mécanismes adoptés dans l'analyse du texte argumentatif et les méthodes qui pourraient être adoptées au cours du processus didactique, afin d'atteindre les apprentissages ciblés et programmés d'avance. Le but est de déterminer une approche procédurale didactique qui permet à celui qui étudie les textes argumentatifs de suivre un système fonctionnel sémantique pragmatique qui met en évidence les caractéristiques de ces textes et les modes d'enseignement et d'apprentissage. Pour ceci et cela, on a choisi le poème « talaiou elchaib » de l'imam Chafai comme exemple illustrant les objectifs procéduraux didactiques, car ce poème contient des dimensions argumentatives qui visent dans l'ensemble à convaincre le destinataire et influencer son comportement et sa croyance à partir du contexte didactique et éducatif.

– **مفهوم التعليمية DIDACTIQUE**: لقد تنوّع مفهوم التعليمية بين الباحثين، غير أنه يرتكز على إيجاد الطريقة المثلى التي تمكّن المعلّم من نقل التعلّمات إلى المتعلمين. لذلك تعدّ التعليمية " الدراسة العلمية لطرائق التدريس وتقنياته، ولأشكال تنظيم مواقف التعلّم التي يخضع لها التلميذ، قصد بلوغ الأهداف المنشودة، سواء على المستوى العقلي أو الانفعالي أو الحسيّ الحركيّ، "[1]، فهي مجال دراسي يشمل مجالات متعددة، يراد من خلالها إحداث تغيير في مهارات المتعلمين. ولذا عدّت التعليمية فن إيجاد الطريقة المثلى في مجال التعليم، وهذه الطريقة " يتدرّج بها المعلّم في شرحه للمعلومات المراد تدريسها، ويتسلسل بها من السهل إلى الصعب، ومن المألوف إلى غير المألوف، ومن البسيط إلى المركب، ومن المحسوس إلى المجرد، [..] إلى أن تتحقق الأهداف المنشودة في أقل وقت وجهد ممكنين "[2] مع مراعاة طبيعة المتعلمين، وكذا السياق التعليمي الذي يؤطر العملية التعليمية. وبهذا فإن التعليمية تسعى إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ✓ **ماذا نُدَرِّسُ؟** ويقصد به تحديد المحتوى والبرنامج المقصود تدريسه.
- ✓ **كيف نُدَرِّسُ؟** وهو بحث في الكيفيات والطرائق المعتمدة لإيصال وتلقين المحتوى التعليمي من أيسر طريق يمكّن من تحقيق الأهداف عمليا.
- ✓ **من نُدَرِّسُ؟** ويرتبط بتحديد طبيعة المتعلّم والصفات التي يتميّز بها.
- ✓ **لماذا نُدَرِّسُ؟** وهي جملة الأهداف الإجرائية العملية المراد تلقينها للمتعلّم.
- ✓ **من يُدَرِّسُ؟** ويضطلع الأمر هنا بتحديد طبيعة المعلّم وصفاته.

وعليه فإن العملية التعليمية نشاط تربوي هادف، يتكفل بتنسيق العناصر التعليمية، من خلال دراسة المحتوى وتحديد شروط التخطيط، وكيفيات تنفيذ وضعيات التعلّم، وكذا المحاولات المتكررة لاستنفار موارد المتعلّم للتعلّم الذاتي، داخل سياق تعليمي تربوي محدد سلفا، غايته الوصول إلى تجسيد الأهداف المسطرة مسبقا في واقع المتعلّم.

2– مفهوم الحجاج ARGUMENTATION: لقد سعى الباحثون حديثا إلى تأسيس نظرية خاصة بالحجاج، تستمد حدودها ووظائفها " من مرجعية خطابية محدّدة، ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يندمج في استراتيجياته الفردية والجماعية"[3]، وهذه المرجعية كانت سببا في تنوّع مضامينه. فالحجاج استراتيجية لغوية تكتسب أبعادها من الأحوال المصاحبة للخطاب, على اعتبار أن اللغة " نشاط كلامي يتحقق في الواقع وفق معطيات معينة من السياق "[4]، فالمرسل أثناء التخاطب ينقل تصوراته ومدركاته الموجودة في واقعه إلى المرسل إليه، قاصدا إقناعه لتغيير بعض معتقداته وبخاصة ما يظهر فيها اختلاف بينهما، فيستعمل خطابا حجاجيا لتلك الغاية؛ فالحجاج " لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية, وإنما هو بُعد ملازم لكل خطاب على وجه الإطلاق "[5]، هذا التلازم هو الموجّه الأساس لكل أهداف التواصل، مما يستلزم أن كل خطاب موجّه إلى الطرف الآخر

"ويهدف إلى الإقناع, يكون له بالضرورة بعد حجاجي"[6]. وعليه فإن الحجاج "جنس خاص من الخطاب, يبنى على قضية أو فرضية خلافية, يعرض فيها المتكلم [المرسل] دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا, قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية "[7].

إن الحجاج ينطلق مما هو بديهي بين المرسل والمرسل إليه, لتبنى على منواله مقاصد المرسل, وبهذا فإن الخطاب الحجاجي " موجّه للتأثير على أراء وسلوكات المخاطَب أو المستمع, وذلك بجعل أي قول مدعّم صالحا أو مقبولا كنتيجة, بمختلف الوسائل "[8] التي تمثل الأدلة الداعمة. علما أن الأدلة التي يقدّمها المرسل أثناء حجاجه " ليس من شأنها أن تكون حاسمة فاصلة فيما تثبت أو تنفي "[9]، فنتائج الحجاج ليست يقينية لا تقبل الشك أو الردّ, والمرسل إليه بإمكانه رفض هذا الحجاج. لذا يُترَك له المجال " لاستخلاص النتائج وربط الأمور بعضها ببعض, على حسب مستواه ومدى استيعابه للحجج المستعملة من قبل المتكلم "[10]، ومدى تعلّق موضوع الحجاج به, إذ غاية الحجاج " ليست الصدق الدقيق ولا البرهنة القاطعة, وإنما هي الإفحام والإقناع "[11]. وعليه فإن الاستمالة تتحقق " باستدلال منطقي قابل للاختيار من قبل المتلقي, ليأتي اختياره اختيارا واعيا وعاقلا "[12]، هدفه إنساني يتمثل في "تحقيق الحرية الإنسانية من حيث هي اختيار عاقل "[13] بالنسبة لهذا المتلقي.

3- علاقة الحجاج بالتعليمية: إن وظيفة الحجاج تأثيرية إقناعية تتّخذ بعدا تعليميا، لأن هدف الحجاج هو دفع المتلقي إلى فعل معين، من خلال تقييم المحتوى الحجاجي المعروض عليه، وهو وجه الاشتراك مع التعليمية؛ فالمعلّم يعرض المحتوى التعليمي على المتعلمين، ويجعل منهم محور العملية التعليمية للوصول إلى الأهداف، وهذا ما يجعل تلك العملية تأخذ بعدا حجاجيا، غايته دفع المتعلمين إلى فعل معين. كما يعدّ الحجاج " تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم "[14]، وبما أن التعليمية تتّخذ تقنيات في إيصال التعلّمات إلى ذهن المتعلّم، فإنها بذلك تعتمد خطابا له أبعاد حجاجية وتقنيات إقناعية من شأنها أن تؤدي بالمتعلّم إلى التسليم بما يعرض عليه، أو أن تزيد من درجته. لذا فإن الحجاج بُعدٌ يلازم العملية التعليمية، وغايته دفع المتعلّم إلى إنجاز فعل معين، لأن التعليم في حقيقة الأمر " عملية ديناميكية قائمة أساسا على ما يقدَّم للمتعلّم من معارف ومعلومات ومهارات أو على ما يقوم به المتعلّم نفسه من أجل اكتساب هذه المعارف وتعزيزها وتحسينها باستمرار "[15]، ولا يتأتى هذا إلا بطريقة تهدف إلى إقناع المتعلّم وتجعل منه طرفا فاعلا في استخلاص النتائج والتفكير في حلّ المشكلات.

4- الآليات التعليمية الإجرائية لتحليل النص الحجاجي: يكمن سرّ التعليمية في تحديد طريقة نقل التعلّمات إلى المتلقين، كما يعتمد الحجاج أيضا على طريقة تسهم في إحداث قناعات لدى المتلقين.

لذا فإن تعليمية تحليل النص الحجاجي ترصد الكيفية الإجرائية التي يتمّ بها هذا التحليل، وهي تدور حول عناصر بنائية تشكّل بنية النص الحجاجي، أساسها تحديد الحجج ووسائل الإقناع لتحقيق استمالة المتلقي. وهذا تمثيل لذلك انطلاقا من قصيدة " طلائع الشيب " للإمام الشافعي[16] مدوّنة هذه الدراسة:

4- 1- أنواع الحجج: إن تحديد نوع الحجة يعدّ منهجا تعليميا في حدّ ذاته؛ إذ يساعد المتلقي على فهمها وإيجاد الآليات الإجرائية المتّبعة في مختلف النصوص الحجاجية، كما تمدّه بالمعرفة التطبيقية اللازمة في مواقف تواصلية لاحقة. وهذه أمثلة لبعض أنواع الحجج:

4-1-1- حجة التناقض وعدم الاتفاق INCOMPATIBILITE: التناقض هو " أن تكون هناك قضيتان في نطاق مشكلتين إحداهما نفي للأخرى ونقض لها "[17]، وتوظَّف هذه الحجة لإبراز قضيتين إحداهما صحيحة والأخرى خاطئة قياسا بالواقع، لاستمالة المتلقي إلى استنتاج الصحيحة منهما. والصورة ذاتها في حقل التعليمية؛ إذ تطرح مختلف القضايا المتناقضة على المتعلّم ليستنتج المقصود منها. ففي البيت الأول من قصيدة الإمام الشافعي عند قوله:

خَبَتْ نَارُ نَفْسِي باشْتِعَالِ مَفَارِقِي * وَأَظْلَمَ لَيلِي إذْ أَضَاءَ شِهَابُهَا

يعرض حججا متناقضة ومتعارضة وفق الأتي:

خَبَتْ نَارُ =/= اشْتِعَالِ مَفَارِقِي وَأَظْلَمَ لَيلِي =/= أَضَاءَ شِهَابُهَا

فجعل الحجج في هذا السياق متقابلة بتوظيف المتناقضات، *من باب التعليم عن طريق الخطأ والصواب، أو من باب تعريف الأشياء بأضدادها.*

4-1-2- حجة التعدية Transitivité: التعدية خاصية " تتّصف بها ضروب من العلاقات التي تتيح لنا أن نمرّ من إثبات أن العلاقة موجودة بين (أ) و **(ب)** من ناحية، وبين **(ب)** و **(ج)** من ناحية أخرى هي علاقة واحدة، وإلى استنتاج أن العلاقة نفسها موجودة بالتالي بين (أ) و **(ج)** "[18]، ولذا تتّخذ هذه الحجة شكلا رياضيا يقوم على أطراف وعلاقة بينها. وفي حقل التعليمية يعين هذا الإجراء على الانتقال بالمتعلّم من مجموع قضايا تربطها علاقة ما إلى استنتاج وجود هذه العلاقة بين أطراف أخرى، كما يمكّنه من استثماره في تعلّمات أخرى تستند إلى مبدأ الارتباط بعلاقة ما. ومثال ذلك:

أَأَنْعَمُ عَيْشًا بَعْدَمَا حَلَّ عَارِضِي * طَلائِعُ شَيْبٍ لَيْسَ يُغْنِي خِضَابُهَا؟

فمحتوى هذا البيت يمكن أن يأخذ الشكل الآتي:

حلول طلائع الشيب ⟸ لا يغني خضابها

حلول طلائع الشيب ⇓

لا يغني خضاب الشيب ⟸ لا ينعم المرء بعيشه

لا ينعم المرء بعيشه

إن الانتقال بين أطراف القضايا المدرجة كفيل *بترتيب التعلّمات في ذهن المتعلّم، وإيصاله إلى المقاصد وفق آلية الاستنتاج المعتمدة في التعليمية.*

4-1-3- الحجة السببية Cause: تعرف بأنها الحجة " التي يحصل بها تقويم عمل ما أو حدث ما باعتبار نتائجه الايجابية أو السلبية"[19]، وتنشأ من تتابع الأحداث الواقعية التي يربط بينها رابط سببي يكون بين الحجة والنتيجة. وفي التعليمية تسند التعلّمات إلى مبدأ السبب، لربط الجزئيات وترتيبها في ذهن المتعلّم، ومثال ذلك:

وَلا تَمْشِيَنْ فِي مَنْكَبِ الأَرْضِ فَاخِرًا * فَعَمَّا قَلِيلٍ يَحْتَوِيكَ تُرَابُهَا

نتيجة حجة (سبب)

إن إدراج مبدأ السبب والنتيجة يجعل المتعلّم يتقبّل ما يعرض عليه، فيتّخذ من *الاستنتاج والربط بين الأسباب والمسببات والنتائج منهجا تعليميا وتعلّميا.*

4- 2- وسائل الإقناع: الحجاج فعل إقناعي ودراسة " لطبيعة العقول ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها "[20]، لذا فإن تحديد وسائل الإقناع يعتمد منهجا تعليميا صرفا، لتبيان العناصر البنائية التي تسهم في تشكيل البنية العامة للحجاج. ومن بين هذه الوسائل:

4-2-1- القياس المنطقي Syllogisme logique: يعتبر المناطقة أن القياس " لا يجب إلا عن مقدمتين لإحداهما بالأخرى تعلُّق "[21]، وهو ينشأ من مقدمتين أو أكثر تفضيان إلى النتيجة. ووظيفة القياس " الانتقال مما هو مُسلَّم به عند المخاطَب – أي المقدمة الكبرى – إلى ما هو مُشكَّل، أي إلى النتيجة "[22]، والربط بين المقدمات والنتيجة يجعل تركيز المرسل إليه مُنصبًّا على الاستنتاج، وهو مبدأ تعليمي محض، لأن غاية التعليم إشراك المتعلّم ودفعه إلى الاستنتاج. ومثال ذلك:

وَمَا هِيَ إلاَّ جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ * عَلَيْهَا كِلاَبٌ هَمُهُنَّ اجْتِذَابُهَا

فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سِلْمًا لِأَهْلِهَا * وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَازَعَتْكَ كِلاَبُهَا

✓ شكل القياس المنطقي:

مقدمة كبرى: الدنيا جيفة مستحيلة
مقدمة صغرى: تجتنبها
⇐ النتيجة: كنت سلما لأهلها

4-2-2- الروابط الحجاجية les Connecteurs Argumentatifs: هي روابط لغوية تضمن تلاحما بين " قولين أو حجتين وتَسنِد لكل قول دورا محددا "[23]، وتعدّ مبدأ تعليميا يعين على ترتيب التعلّمات في الذهن على نحو:

فَدَعْ عَنْكَ سَوْءَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا * حَرَامٌ عَلَى نَفْسِ النَّقِيِّ ارْتِكَابُهَا

نتيجة رابط حجاجي حجة

4-2-3- العوامل الحجاجية les Opérateurs Argumentatifs: تقوم "بتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما "[24]، لتحيل إلى المقاصد. مثل أسلوب الشرط:

فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا كُنْتَ سِلْمًا لِأَهْلِهَا * وَإِنْ تَجْتَنِبْهَا نَازَعَتْكَ كِلاَبُهَا

شرط حجة نتيجة شرط حجة نتيجة

الهوامش:

1- محمد الدريج، تحليل العملية التعليمية، قصر الكتاب، الجزائر، ط01، 2000، ص8.

2- أفنان نضير دروزة، النظرية في التدريس وترجمتها عمليا، دار الشروق، عمان، الأردن، ط01، 2007، ص36.

3- حبيب أعراب، " الحجاج والاستدلال الحجاجي – عناصر استقصاء نظري"، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر2001، عدد01، مجلد30، ص98.

4- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط01، 2003، ص120.

5- حبيب أعراب، " الحجاج والاستدلال الحجاجي "، ص100.

6- الحواس مسعودي، " البنية الحجاجية في القرآن الكريم (سورة النحل نموذجا) "، مجلة اللغة والآداب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ديسمبر1997، عدد 12، ص330.

7- محمد العبد، " النص الحجاجي العربي- دراسة في وسائل الإقناع "، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، صيف- خريف 2002، عدد60، ص44.

8- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000، ص106.

9- المرجع نفسه، ص106.

10- الحواس مسعودي، " البنية الحجاجية في القرآن الكريم "، ص330.

11- حبيب أعراب، " الحجاج والاستدلال الحجاجي "، ص127.

12- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، ص109.

13- المرجع نفسه، ص110.

14 - Chaim Perelman et O. Tyteca, Traité de L'Argumentation, Edition de l'Université de Bruscelles, 5éme Edition,1992, P05.

15- أحمد حساني، دراسات في اللسانيات التطبيقية – حقل تعليمية اللغات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط01، 2009، ص139.

16- ديوان الإمام الشافعي، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط03، 2005، ص 26 و 27.

17- عبد الله صولة، الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه، كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، سلسلة آداب، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، مجلد XXXIX، ص325.

18- المرجع نفسه، ص329.

19- المرجع نفسه، ص333.

20 - Chaim Perelman, Traité de L'Argumentation, P18.

21- ابن وهب (أبو حسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب و خديجة الحديثي، جامعة بغداد، العراق،1967، ص22.

22- محمد العبد، " النص الحجاجي العربي "، ص57.

23- حمو النقاري، التداولية والحجاج طبيعته ومجالاته ووظائفه، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط01، 2006، ص103.

24- المرجع نفسه، ص103.